للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعى

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٣٧ —

فترة جمام

نفض الرافعى يديه من المعركة بينه وبين العقاد ، ثم فاء إلى نفسه ، وعاد إلى دار كتبه يطالع ويقرأ ويتزوّد ... واختفى اسمه من الصحف والمجلات أشهراً ، كان فى أثنائها يتهيأ لإتمام كتابه « أسرار الإعجاز » ، ويعمل فى الوقت نفسه على جمع ما نشر من المقالات فى الفترة السابقة وترتيبها ، ليخرجها كتاباً يسميه « قول معروف ... »

على أن عنايته بشأن هذين الكتابين : أسرار الإعجاز ، وقول معروف — لم يمنعه أن يكون له فى كل يوم ساعات محدودة للقراءة والاطلاع . وكانت هذه الساعات المحدودة فى أكثر لياليه تمتد من المغرب إلى منتصف الليل . وأستطيع أن أقول : إن هذه الفترة على ما كان يبذل فيها من جهد ، كانت فترة جمام وراحة ، لم ينعم بمثلها فيما بقى من حياته . وكنت بحسبته يومئذ قريبَ العهد ، ولكنى كنت ألصقَ أصحابه به ؛ فكان لى و له كل يوم ساعات : يقرأ لى وأستمع إليه فى داره ، أو أماشيه فى الخيال أو أجالسه فى القهوة ، أو أصحبه إلى السينما . وكان علىّ فى هذه الفترة وفيما بعدها من الزمن ، أن أقرأ ما يهدَى إليه من الكتب ، لأشير له إلى المواضع التى يجدى عليه أن يقرأها ، ضنًّا بوقته على قراءة ما لا يفيد . وكان لى وله فى ذلك فائدة أىُّ فائدة ؛ وكثيراً ما كان يدفع إلىّ بعض ما يرد إليه من الرسائل ، لأرى رأيى فيه وأشير عليه بالجواب أو أتولى ذلك بنفسى . وكانت هذه الفترة ذات أثر كبير فى تكوينى وتوجيهى فى الأدب توجيهاً لم أكن أقصد إليه ؛ كما تأثر هو بصحبتى فى هذه الفترة تأثُّراً وجّهه فى أدب الانشاء توجيهاً لم يكن يُعرَف به منذ نشأ فى الأدب قبل ذلك بثلاثين سنة ؛ فبدأ أسلوبه أكثر استواء عند عامة القراء ، وكان قبلها يُتَّهَم بالغموض والتعقيد ؛ كما عالج القصة فنجح فيها إلى حد بعيد ، إذ كانت القصة — وما تزال — أحبَّ ألوان الأدب إلىّ ، على حين كان الرافعى لا يؤمن بفائدة القصة ولا يعترف بخطرها بين أبواب الأدب الحديث . فما هو إلا أن حملته على محاولتها فأنشأ قصته الأولى ؛ ثم كأنما اكتشف نفسه من بعدُ فصار ماينشىء من القصص هو أحبَّ منشآته إليه ، وخطا بها إلى نفوس القراء خطوات ...

ومن طريف ما يُذكر فى هذا الباب أننى كنت أُنشّىء القصص لمجلة الرسالة ، لا أكاد أعنى بشىء غيرها من موضوعات الأدب ، وكان حُسن وقْعها عند القراء يدفعنى إلى الاجادة والاستمرار ؛ ولكن قارئاً واحداً كان يعيب علىّ ما أكتب ، ولا يرضى منى أن تكون القصة هى كل ما أعالج من فنون الأدب ، وكثيراً ما كان يقول لى : « يابنى ، إن لك بياناً وفكراً ومعرفة ، فلماذا لا تحاول أن تكون أديباً ؟ إنه لا يليق بك أن تكون القصص هى كل ما تحاوله من ضروب الإنشاء . وإن فيك استعداداً لأكثر من ذاك ... ! » وما زال يلجّ علىّ ويكرر هذه اللامة حتى وقع فى نفسى أننى أسىء إلى نفسى بمحاولتى أن أكون قصصياً ؛ فانصرفت عن القصة ، وكانت أحبَّ إلىّ ، إلى فنون أخرى من الأدب ، إلا ما أنشىء من « القصص المدرسية » التى

بصوت عذب شبيه بأصوات النساء . وكان بعضهم يهلك من عذاب الخصى

وبعد فان مثل المؤرخين الأوربيين الذين ينكرون أو يصغرون من أمر مظاهر القسوة فى الحضارات الأوربية ويكبرون أمرها فى الحضارات الشرقية مثل كل إنسان فى هذه الحياة الدنيا ، فان كل إنسان فى هذه الحياة الدنيا يصغر ويُهوِّن من أمر مظاهر القسوة التى ترتكبها نفسه ويكبر من أمر مظاهرها الصادرة عن نفوس غيره من الناس . وهو يفعل ذلك إما غفلة وعن حسن نية ، وإما يفعل ذلك وهو يدرى ما يفعل . ولن تنصلح الانسانية إلا إذا امتنع تضليل النفس هذا

عبد الرحمن شكرى

أؤلفها لتلاميذى على أنها وسيلة من وسائل التربية لا باب من الأدب . ثم لم يمض بعد ذلك إلا قليل ، حتى كانت القصة هى أكثر ما يعالج الرافعى من أدب الانشاء ، وكان له فيها فَوَاقٌ ونَسْق . وحلّت القصة محلها من تقديره بين أبواب الأدب ..!

وإذا كان فى أذنى الرافعى ذلك الوقر الذى يقطعه عن دنيا الناس ، فان أسلوبه فى الكتابة كان بعيداً عن فهم الكثير من ناشئة القراء . فلما اصطفاني بالودّ ، أخذت على نفسى أن أكون أذنه التى يسمع بها ما يقال عنه ، وما يرى القراء فى أسلوبه ، فكنت إذا جلست إليه ليملى علىّ أحاوره فيما يدق على الأفهام من أسلوبه ، وما تنبو عنه أسماع القراء . ثم لا أزال به حتى يغير العبارة فيجعلها أدنى إلى الفهم وأخف على السمع . وكان ينكر ذلك علىّ أول أمره ، بما فيه من اعتداد بنفسه وكبرياء ، وكان أحياناً يوشك أن يغضب ، وأنا أتلطف له وأحتال عليه ؛ ثم لم يلبث أن رضى ذلك مني ، فكان يملى على العبارة من المقال ، ثم يسألنى : « ما ذا فهمت مما كتبت ؟ » فاذا كان يطابق ما فى نفسه مضى فى إملائه ، وإلا عاد إلي ما أملاه بالتغيير والتبديل حتى يتضح المعني ويبين المراد . وبدا فى النهاية أن يسمينى — على المزاح — : العقل المتوسط من القراء ... !

* * *

لم يُنشر للرافعى فى هذه الفترة شيء ذو بال ، إلا أحاديث كان يمليها على بعض المرتزقة من كتّاب الصحف الأسبوعية . وكان له طائفة من هؤلاء الكتاب يعطف عليهم ويعينهم على العيش ، فكانوا يفدون إليه فى المحكمة ليسألوه حديثاً فيملى عليهم جوابه ثم يذهبون لينشروه حيث يشاءون ويقبضوا أجره

فى هذه الفترة ، وكَلَ إليه الأديب حسام الدين القدسى الورّاق تصحيح كتاب « ديوان المعانى » لأبى هلال العسكرى ، وكان قد وقع منه على نسخة خطية فطبعها بأغلاطها وتصحيفها ، ثم بدا له قبل أن يتم طبع الديوان أن يلجأ إلى الرافعى ليصحح له أغلاطه ويتم نقصه على أن ينشره فى الجزء الأخير من الكتاب

وقبِل الرافعى هذا التكليف على قلة أجره ، ليقرأ الكتاب قبل أن يقرأه الناس ، وليستمتع بلذة المعاناة فى تصحيحه وتصويب خطئه ؛ وإنها لرياضة عقلية ممتعة ، لا يستشعرها ولا يقوي عليها إلا القليل من الأدباء . ومضى فى هذا العمل شهراً أو يزيد ، وكنت معه فيه ، ثم انتكثت المعاهدة التى كانت بينه وبين القدسى فترك له كتابه بعد أن أصلح منه جزءاً غير قليل . وقد استطعت فى تلك الفترة التى صحبت فيها الرافعى وهو يحاول تصحيح الكتاب أن أعرف مقدار اطلاعه وسعة علمه وقوة بصره بأساليب العربية ؛ وقد رأيت منه فى هذا الباب أشياء عجيبة من قوة الحافظة ، وسرعة الاهتداء إلى مراجع البحث ، ومهارة الاستدلال على مواضع النقص ، حتى لكأنى بازاء مكتبة دقيقة الترتيب منتظمة التبويب ما شئت من بحث هديتك إليه قبل أن تبحث عنه . على أنه كان أحياناً يعرف موضع النقص من الكتاب ثم لا يهديه البحث إلى تتمته ، فيضع فكره موضع فكر المؤلف ليستقيم المعنى ويتساوق الكلام وأكثر ما كان يقع ذلك فى الشعر المشطور . وقد حدث مرة أن ظلّ الرافعى يبحث يوماً كاملاً عن تمام بيت من الشعر فى مظانه من كتب العربية ؛ فلما أعياه البحث جعل تمامه من نظمه ثم مضى إلى تصحيح ما بعده من الكتاب . وفجأة ترك ما هو فيه وقال : « اسمع ! ناولنى الكتاب الفلانى » فمددت يدى إلى موضعه من المكتبة فناولته إياه ، فأخذ يتصفحه قليلا ثم قال : « لقد وجدته ... هذا هو البيت الذى كنت أبحث عنه وتمامه . عد إلى ما كتبت من قبلُ لتصححه ! » وعدت إلى ما كتبت ، ورجعت النظر فى الكتاب الذي بين يدىّ ، فاذا تمام البيت فيما كتبت وفى الكتاب سواء ، لا يختلفان إلا فى حرف الجر ... أكان فضل هذا إلى ذاكرة الرافعى ، أم إلى قوة بصره بالشعر وبأساليب البيان ؟

* * *

ولم يكتب الرافعى فى هذه الفترة التى سبقت اشتغاله بالرسالة ، إلا بضع مقالات فى البلاغ ؛ وكان لكل مقال حافزه وداعيه :

كان السيد حسن القاياتى يكتب في جريدة « كوكب الشرق » كلمات فى موضوعات شتى من وحى الساعة وخواطر الحياة . فبدا له يوماً أن يكتب فى الموازنة بين قول الله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة ... » وقول العرب : « القتل أنفى للقتل ! » فانزلق إلى رأى ... وكان محرر الكوكب فى ذلك الوقت هو الدكتور طه حسين ، وهو من هو عند الرافعى فى

دينه وفى أدبه وفي إيمانه بقدس القرآن ... ولم يكن الرافعى يواظب يومئذ على قراءة كوكب الشرق

وجاء البريد ذات صباح إلى الرافعى برسالة من صديقه الأستاذ محمود محمد شاكر ، يلفت نظره إلى ما كتب الأستاذ القاياتى وإلى ضلاله فى تفضيل الكلمة الجاهلية على آية القرآن .. ودفع إلىّ الرافعى برسالة الأستاذ شاكر وهو يقول : « أتصدّق هذا ؟ أيجرؤ أحد أن يقولها ، أم هى مبالغة وتهويل من محمود ؟ أم هو لم يفهم ما كتب الكاتب المسلم وحمل كلامه على غير ما يريد ؟ »

ثم بعث فى طلب الجريدة التى نشرت هذه الضلالة فجىء بها . فما كاد يقرؤها حتى اربدّ وجهه وبدا عليه التميظ والانفعال ، ودار لسانه بين شدقيه بكلام ، ثم لم يلبث أن نهض مغضباً إلى الدار قبل موعده ، فانقطع عنى يومين ثم أرسل يستدعينى إليه ، فأملى علىّ مقالة طويلة بعنوان : « كلمة مؤمنة فى رد كلمة كافرة ! »

وكانت مقالة من عيون مقالات الرافعى ، نشرتها البلاغ فى صفحتها الأدبية . وقد أورد فيها بضعة عشر رأياً فى بيان إعجاز الآية وبلغها من البلاغة بازاء الكلمة الجاهلية ، وقد جعلها من بعدُ فصلاً من شواهد كتابه « أسرار الاعجاز » الذي لم يطبع بعد ...[1]

وقرأ الأستاذ القاياتى مقال الرافعى فى الرد عليه ، فانتفع بها فيما بينه وبين نفسه ، واعترف على نفسه فى خلوته ، ولكنه لاذ بالصمت ، وكانت كرامته الأدبية أعزّ عليه من كرامة القرآن ، فلم يردّ عليه ولم يعترف علانيةً بما كان من خطئه فيما انزلق إليه ..!

وفتح مقال الرافعى أبواباً من القول لطائفة من الأدباء ؛ إذ كان فيما ردّ به الرافعى أن كلمة « القتل أنفى للقتل » ليست جاهلية كما يعرف قراء العربية عامة ، ولكنها نشأت في العصر العباسى لمثل ما استعملها له الأستاذ القاياتي فى معارضة القرآن ، وأسند ! مخترعها إلى حكيم الجاهلية أكثم بن صيفىّ ليتمّ له قصده ؛ وجازت دعواه على قراء العربية حتى كشف الرافعي عن زيفها بعد ألف سنة !

(١) نحسن الظن كثيراً إذا زعمنا أن هذا الكتاب الفريد فى موضوعه وفى تأليفه ، سيلقى من عناية أدباء العربية ما يحملهم على محاولة طبعه فى يوم قريب ... !

كان تاريخ هذه الكلمة ميداناً للقول والمعارضة أياماً بين الرافعى وبعض الأدباء ، ثم لم ينته إلى خاتمة ؛ إذ كان الذى يعارض الرافعى فى موضوعها ليس أهلاً لمناظرته ، فلم يلبث أن شمر بالإعياء من أول شوط ، فكتب إلى الرافعى رسالة خاصة فى البريد يستعفيه ويعتذر إليه أنه مشغول البال بالاستعداد للزواج ...

* * *

وفى هذه الفترة تم إنشاء « المجمع اللغوى » وكان الرافعى يعنى نفسه بأن يكون من أعضائه ، فحال بينه وبين ما يتمنى أنه لا يسمع ؛ وإن لم يمنعه أن يكون عضواً فى المجمع العلمى العربى بدمشق ، وقد اختير له هو والمرحوم حافظ بك إبراهيم قبل ذلك بسنوات ، فلم يشهد جلسة من جلساته ، ولم يشترك فى قرار قرره ، ولم يبعث إليه برسالة واحدة فى موضوع من موضوعات العلم العربى ...

وساء رأى الرافعى فى المجمع اللغوى من يوم إنشائه ، ولم يمنعه من الحملة عليه أنه كان موعوداً بأن يُختار فيه عضواً مراسلاً كما أنبأه صديقه فارس نمر باشا عضو المجمع

وافتتح المجمع ، وكان أول محرراته الأدبية برقية بالشكر إلى المرحوم الملك فؤاد

ولقيت الرافعى ذات مساء ؛ فإذا هو يرفع إلىّ جريدة البلاغ قائلاً : « إقرأ ؛ هذا أديب صغير يهاجم المجمع اللغوي فى يوم إنشائه ، ويزعم أنه لم يستطع أن يكتب برقية بريئة من الخطأ ليشكر بها منشئه ... ! »

وقرأت ، فإذا نقد عنيف ، وتهكم مر ، وسخرية لاذعة ... كانت كلمة صغيرة ولكنها ذات شأن ، وقد اختار كاتبها أن يكون توقيعه (أديب صغير) مبالغة فى السخرية والتهكم ... وأخذ الكاتب على المجمع بضع غلطات لا يتنبه لمثلها إلا أديب دارس ، له فى العربية مكان ...

وقال الرافعى : « ماذا رأيت ؟ » قلت : « نقد مر لا يبلغ به هذا المبلغ على إيجازه إلا أديب كبير ! » قال : « فمن تظنه ؟ » وكان سؤاله مشمراً بجوابه ، ولكننى كذّبت نفسى ... أيكون هو ؟ وما يحمله على أن يخفى عنى ؟ لقد كان معى أمس ، وأمس

الأول ؛ فلماذا لم يحدثني بشيء في ذلك ؟

وقلت للرافعي : « أو تعرف كاتبـه ؟ » قال : « حاول أن تفكر ... لقد حاولتُ فلم أوفق ! » وكان حسبي هذه الكلمة لتزول كل شك في نفسي ، فما كذب عليَّ الرافعي قبلها قط ... ! ولم أعرف إلا بعد أيام أنه هو ...

ورد المرحوم الأستاذ حسين والي ، وعاد الرافعي يرد ويتهكم ويسخر ، ويتحدَّى المجمع اللغويَّ كله أن يرشده إلى الأطوار الاجتماعية التي مرَّت بها كلمة (حظيَ) حتى ساغ للمجمع من بعد أن يستعملها بمعنى (ظفر) في برقية الشكر إلى جلالة الملك ... وسكت المجمع ، وسكت الأستاذ حسين والي ، وظل الرافعي (الأديب الصغير) يكتب حتى جاءه الرجاء أن يسكت فسكت !

مقالات (الأديب الصغير) في نقد المجمع اللغوي هي آخر ما كتب الرافعي في النقد على أسلوبه وطريقته

* * *

ومما كتبه في تلك الفترة بحث طويل في البلاغة النبوية أنشأه إجابة لدعوة الهداية الإسلامية بالعراق ، لتنشره في ذكرى المولد النبوي . وقد لقي الرافعي من العناء في إنشاء هذا الفصل مالا أحسب غيره يقوى عليه . وحسبك أن تعلم أن الرافعي لم يتهيأ لكتابة هذا الفصل حتى قرأ صحيح البخاري كله قراءة دارس ، وأنفق في ذلك بضعة عشر يوماً ، وهو وقت قليل لا يتسع للقارئ العجل أن يقرأ فيه صحيح البخاري قراءة تلاوة ؛ فكيف به دارساً متمهلاً يقرأ ليتذوَّق بلاغة الأسلوب ودقة المعنى ؟ ولكن ذلك ليس عجيباً من الرافعي الذي كان يقرأ كل يوم ثماني ساعات متوالية لا يمل ، فلا ينهض عن كرسيه حتى يوجمه قلبه !

وكتب الفصل بعد ذلك في ثلاثة أيام ، ثم دفعه إلى لأكتبه بخطي ولم يمله علي ، فأنفقت في كتابته ثلاثة أيام أخرى

هذا الفصل يملأ نحو عشرين صفحة من صفحات الرسالة ، ويصلح أن يكون خاتمة لكتاب إعجاز القرآن — لو قدر لإعجاز القرآن أن يطبع طبعة جديدة — فإنه أشبه بموضوعه وفيه تمامه

وما فرغ الرافعي من كتابة هذا الفصل ، حتى أحس بحاجته إلى الراحة بعد ما بذل من جهد ، فأغلق دار كتبه وخرج إلى الشارع يشم الهواء ، ثم لم يكد يأتي المساء حتى جاءه البريد برسالة من جمعية الكشاف المسلم بالشام ، تطلب إليه أن يمدَّ لها موضوعاً تنشره في صحيفتها لمناسبة المولد النبوي كذلك ... !

وضاقت أخلاق الرافعي ، فهم أن يلقي الرسالة ليفرغ لنفسه بضعة أيام للاستجمام ، ثم تحرَّج ، فعادت إليه ابتسامته وهو يقول : « سأفعلها قُربَى إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو رمى بي هذا الجهد المتواصل إلى تهلكة ! » وعاد إلى مكتبه وهو متعب مكدود ... ثم أملى عليَّ مقالة « حقيقة المسلم » التي أعاد نشره في الرسالة بعد ذلك وجمعه إلى وحي القلم

وكتب بضع مقالات أدبية في مجلة المقتطف

ثم دعته (الرسالة) ليكتب فصلاً عن الهجرة في العدد الممتاز الأول لسنة ١٣٥٣هـ ، فكان ذلك أول عهده بالكتابة فيها ، ثم اتصل بها حبله ، فظل يكتب لها كل أسبوع مقالاً أو قصة من قصصه الممتعة ، لا يفتر عن هذا الواجب إلا أن يمنعه المرض أو تشغله شاغلة من شواغل الحياة . ومات وهو يتهيأ لكتابة مقاله الأسبوعي لها ، ولكن القضاء عاجله فخلفه على مكتبه ورقة بيضاء ... !

محمد سعيد العريان

الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الكاتب

ابي العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقته ، وفي أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه ناقدو أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة في القاهرة وصدر منذ قليل

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتي

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة

ويباع في جميع المكاتب الشهيرة